خير الهدي هدي المصطفى ﷺ

١٤

أحكم السفينة فإن البحر عميق

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

عَن أَبي ذَرٍّ الغِفارِيِّ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ:

أَوْصَاني خَلِيلي ﷺ بِأربعِ كَلماتٍ هُنَّ أحبُّ إليَّ منَ الدُّنْيا ومَا فِيها ، قَالَ لي: «يَا أبَا ذَرٍّ!

أَحْكِمِ السَّفينةَ فإنَّ البَحرَ عَميقٌ.

واسْتكثِرِ الزَّادَ فإنَّ السَّفرَ طَويلٌ.

وخَفِّفْ ظَهْرَكَ فإنَّ العَقبةَ كَؤُدٌ.

وأخْلِصِ العَملَ فَإنَّ النَّاقِدَ بَصيرٌ».

مِنْ دَفاتِرِ الذِّكريَاتِ!!

وفي هَذهِ اللَّيلةِ عَادَ (أبُو الخيرِ) إلى دَفاترِ مُذكَّراتِهِ ، فَوجَدَ واحِداً مِنها كُتبَ عَلى غِلافِهِ ، وبالخَطِّ العَريضِ: مُفكرَةُ عامِ ١٩٥٠م..

فَأخذَ الدَّفترَ.. وأسندَ ظَهرَهُ إلى الحَائطِ.. واسْترخَى عَلَى الأرضِ.. ورَاحَ يتذكَّرُ أيَّامَ الشَّبابِ!!

وفتَحَ الدَّفترَ فإذَا عَلَى الصَّفحةِ الأُولَى وَاحدةٌ منَ الحِكَمِ التَّي كَانَ يَكتُبها ، .. وإذا فِيها: وَصيَّةُ لُقمانَ الحَكِيمِ إلى وَلدِهِ:

يا بُنَيَّ!

إنَّ الدُّنيا بَحرٌ عَميقٌ ، وقَد غَرقَ فيهِ نَاسٌ كَثيرٌ ، فَلتكُن سفينَتُكَ فِيها تَقوَى اللهِ عَزَّ وجلَّ ، وحَشوُهَا الإيمانُ باللهِ تَعالى ، وشِراعُها التَّوكُّلُ عَلَى اللهِ عزَّ وجَلَّ ، لعَلَّكَ تَنْجُو ومَا أرَاكَ نَاجِياً!!

وإذَا بِهِ يَقرأُ تَحتَها وبِخَطِّ يَدِهِ: إذاً الدُّنيا كَالبحرِ ، دَارٌ لا أمانَ فِيها ولا اسْتِقراراً.

والسَّفينةُ هي: العَملُ الصَّالحُ الَّذِي يَحملُ

الإنسانَ إلى شَاطِئِ البَرِّ والأَمانِ ، مِصداقُ ذَلكَ ما قالَهُ الإمامُ عَليّ بنُ أبي طَالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ:

إنَّ للهِ عِبـــــادَاً فُطنـــــا
طَلَّقُوا الدُّنيا وخَافُوا الفِتَنَا
نَظـرُوا فِيهـا فَلمَّـا عَلِمُـوا
أنَّهـا لَيسـتْ لحـيٍّ وَطَنـا
جَعلُـوهـا لُجَّـة[1] واتَّخـذُوا
صَـالـحَ الأعمـالِ فِيهـا سُفُنَـا

وبَينَما هُو يُقلِّبُ أوراقَ دَفْتَرِ مُذكَّراتِهِ ، إذ دخَلـتْ عليـهِ ابنتُـهُ (دانيـة).. فحَـاولَ إخفـاءَ الدَّفترِ .. لَكِنَّ (دانية) وهيَ الفَتاةُ المُشَاغبةُ والكثيرةُ الحَركَةِ ، اسْتطاعَتْ أن تَأخُذَهُ منهُ..

---

(١) أي: بحراً.

وتهربَ إلى الصَّالونِ.. لِتقرأ ما حدَثَ مع أبيها قَبلَ (٥٠) عَاماً!!

فإنَّ البَحرَ عَميقٌ

وكَعادةِ أَفرادِ العَائلةِ جَميعاً ، فقدِ اجْتَمعُوا بعدَ صَلاةِ العِشاءِ في الغُرفةِ الكَبيرةِ ، ونَظرتْ (روضةُ) إلى الحاضرِينَ وقالتْ: ولَكن (دانية) غَائبةٌ عن الجَلسةِ ، فأينَ هي يا تُرى؟

وقَامَ (أبُو الخيرِ): وذَهبَ إلى الصَّالونِ ، فَوجَدها مَازالتْ تَقرأُ في دَفترِ الذِّكرياتِ ، وحَاولَ أن يأخُذَهُ منهَا ، لكن دُونَ جَدْوى!!

واتَّفقَا أنْ تُكمِلَ قِراءَتهُ بعدَ الجَلسةِ العَائليَّةِ.

وافْتَتحَتِ الجلسَةَ (أُمُّ الخيرِ) حَيثُ قَرأتْ

منْ أحد كُتبِ الأَحاديثِ الشَّريفةِ وصيةَ رَسولِ اللهِ لأبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنهُ.

ثُمَّ قالتْ:

وقَدْ ذَكرَ الرَّسولُ صلواتُ اللهِ عَليهِ الدُّنيا في أَحادِيثهِ الشَّريفةِ ، مِن ذَلكَ قولُه:

«حُبُّ الدُّنيا رَأسُ كُلِّ خَطيئةٍ» وقَولُه: «الدُّنيا مَلعُونةٌ ، مَلعُونٌ مَا فِيها إلاَّ ما كَانَ للهِ مِنها».

وقولُه: «الدُّنيا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ ، ومَالُ منْ لاَ مَالَ لهُ ، ولَها يَجمَعُ منْ لا عقلَ لَهُ ، وعَليها يُعادِي منْ لاَ عِلمَ لَهُ ، وعَليهَا يَحْسُدُ من لا فِقهُ لَهُ ، ولَها يَسعَى منْ لاَ يقينَ لَهُ».

وجَاءَ منْ بعدِهِ أحدُ تَلامذَتِهِ ، وهُو عَليٌّ رَضيَ اللهُ عنهُ ، فذَكرَ شَيئاً عن الدُّنيا ، فَقالَ:

مَنْ جُمِعَ فيهِ سِتُّ خِصالٍ لمْ يدعْ للجنَّةِ مَطلباً ، ولاَ عن النَّارِ مَهرَباً:

منْ عَرفَ اللهَ تَعالَى فأَطاعَهُ.

وعَرفَ الشَّيطانَ فَعصاهُ.

وعَرفَ الحَقَّ فاتَّبعَهُ.

وعَرفَ البَاطلَ فَاتَّقاهُ.

وعَرفَ الدُّنيا فَرفَضَها.

وعَرفَ الآخرةَ فَطلبَها..

ثُمَّ جاءَ من بعدهِ ابنُه الحَسنُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ:

رحمَ اللهُ أقوامَاً كانتِ الدُّنيا عِندَهُم ودِيعةً فأدَّوهَا إلى من ائتَمَنهم عَلَيها ، ثُمَّ رَاحُوا خِفَافاً.

فَقالَ (صُهيبٌ):

إذاً: الدُّنيا دارُ زَوالٍ لا قَرارَ فيها ، والآخرةُ دارُ خُلودٍ لا فَناءَ فِيها ، فَالعاقِلُ هُو الَّذي يَعملُ في دُنياهُ لِدُنياه وآخِرتِهِ ، والشَّقِيُّ هُو الَّذي يَبيعُ دِينَهُ بِدُنياهُ ، وَصدقَ الشَّاعرُ عِندَما قَالَ:

ألاَ إنَّما الدُّنيا كَأحلامِ نَائمٍ
ومَا خَيرُ عَيشٍ لا يَكونُ بِدائمِ
تَأمَّلْ إذَا مَا نِلتَ بِالأمسِ لَذَّةً
فَأفنيتَها هَلْ أنتَ إلاَّ كحالِمِ
فَكمْ غَافلٍ عنهُ وليسَ بغافلٍ
وكَمْ نائمٍ عنهُ ولَيسَ بِنائمِ؟!

هيَّا إلى العَملِ الصَّالح..

فقالَ (جميلٌ):

إذاً الحَلُّ الوَحيدُ ، وسبيلُ النَّجاةِ في هَذِه

الدُّنيا هُو العملُ الصَّالحُ ، مصداقُ ذلكَ قولُه تَعالَى:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: ٥٥].

وقَولُه أيْضاً:

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾

[العصر: ١ - ٣].

ولا يَحسبَنَّ أَحدٌ أنَّ العملَ الصَّالحَ لا يُقبلُ إلاَّ إذا كَانَ كَبِيراً!!

لاَ ، إنَّما المَسألةُ تتَّصِلُ بالإخلاصِ والنِّيَّةِ الصَّادِقةِ ، كَما قالَ رسولُ الله ﷺ:

«اتَّقوُا النَّارَ ولَو بِشِقِّ تَمرةٍ ، فَمنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكلِمَةٍ طَيِّبةٍ».

وَمِنْ ذَلكَ قَضيَّةُ التَّقْوى ، قَالَ اللهُ تَعالَى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾

[الدخان: ٥١ ـ ٥٢].

وقَالَ أيضاً:

﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر: ٦١].

ورَضِيَ اللهُ عنْ عَلِيٍّ عِندمَا لخَّصَ مَسألةَ التَّقوَى بِكلماتٍ ، فَقالَ:

التَّقوَى: هِيَ الخَوفُ منَ الجَليلِ سُبحانَه وتَعالَى ، والعَملُ بِالتَّنزِيلِ ، والاستِعدَادُ ليومِ الرَّحيلِ ، والرِّضَا بِالقليلِ.

وأفضَلُ الأعمالِ الصَّالحةِ: الإيمانُ باللهِ

تَعالى ، ثُمَّ العملُ بِما جَاءَ في القُرآنِ والسُّنَّةِ ، ثُمَّ التَّوكُّلُ عَلَى اللهِ في كُلِّ الأحوالِ ، ثُمَّ الانفتاحُ بِالخيرِ عَلَى جَميعِ خَلقِ اللهِ تَعالى.. ، فَإذَا قَامَ الإنسانُ بِذَلكَ نَجَا مِنْ فِتنةِ الدُّنيا وخَرجَ مِنها سالِماً مُعافىً.

فإنَّ السَّفرَ طَويلٌ

وابتَسمتْ (أُمُّ الخَيرِ) ثُمَّ قالتْ: ولاَ يَعنِي الرَّسولُ ﷺ مِنَ الاستِكثارِ من الزَّادِ ، أن يَجمَعَ الإنسانُ الطَّعامَ والشَّرابَ!!

إنَّما قَصَدَ من الزَّادِ: الأعمالَ الصَّالحةَ ، مِصداقُ ذلكَ قَولُ اللهِ تَعالَى:

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾

[المؤمنون: ١٠١ ـ ١٠٣].

وإلاَّ فَما أَصعبَ الوُقُوفَ بينَ يَديِّ اللهِ ، بَعْدَ سَفرٍ طَويلٍ ، فَإذا النَّاسُ يَحمِلُونَ معَهم زَاداً كَبيراً ، وعَلى حِينِ يَجدُ الإنسانُ نَفسَه وَحيداً ودُونَ زَادٍ ، قَالَ اللهُ تَعالَى:

﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾

[آل عمران: ٣٠].

وقَالَ الشَّاعرُ وهُو يُخاطِبُ الإنسانَ الغَافِلَ:

أتَرضَى أنْ تَكونَ رَفيقَ قومٍ
لَهُم زَادٌ وأنتَ بغيرِ زَادِ؟!

وسُئِلَ أحدُ كِبارِ الزُّهَّادِ التَّابعينَ ، وهُو (إبراهيمُ بن أدْهَمَ) رَحِمَهُ اللهُ: لِمَ زَهِدْتَ في الدُّنيا؟

فَقالَ: لِثَلاثٍ:

الأَوَّلُ ـ رأَيتُ الطَّريقَ طَوِيلاً وَليسَ مَعِي زَادٌ.

والثَّاني ـ رَأيتُ القَبرَ مُوحِشاً وليسَ مَعِي مُؤنِسٌ.

والثَّالثُ ـ رَأيتُ الجَبَّارَ قَاضِياً وليسَ مَعِي حُجَّةٌ ولاَ مَعِي مَنْ يُدافِعُ عَنِّي...

خَفِّفْ ظَهْرَكَ!!

وقَالتْ (رَوضةُ): ثُمَّ يُطالِبُنا الرَّسولُ ﷺ بِأنْ نَعمَلَ قبلَ الرَّحيلِ إلى العَالَمِ الآخرِ عَلى إعطاءِ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وذَلِكَ قبلَ الصُّعودِ عَلَى قِمَّةِ الجَبلِ، وكَيفَ يَصعدُ منْ يَحملُ عَلى ظَهرِهِ الأوزَارَ والآثامَ؟

فَمنْ كانَ عِندَهُ مَظْلَمةٌ لأخيهِ ، أوْ أمانةٌ للنَّاسِ ، أو حقوقٌ للهِ تَعالَى ، فَليُبادِرْ إلى تَأدِيةِ ذَلكَ قبلَ أنْ يَأتيَ مَلكُ الموتِ ، وعندئذٍ ... لاَ فائدةَ تُرجىَ أبداً!!

وأخْلِصِ العَمَلَ

وخَتَم (أبُو الخَيرِ) الجَلسةَ بِقولِهِ:

لِذلِكَ يَا أحِبَّتِي ، فَبعدَ أنْ سَمِعنا أنَّ الدُّنيا سَريعةُ الزَّوالِ ، وأنَّ الفَائدةَ الَّتي يَجنِيها العَبدُ مِنَ الدُّنيا هِي التَّزَوُّدُ بالأعمالِ الصَّالحةِ ، فَالموقفُ بَينَ يَديِّ اللهِ شَاقٌّ وعَسِيرٌ ، والله مُطَّلِعٌ عَلى السِّرِّ والعَلَنِ.

مِنْ هُنا أنصَحُ نَفْسي ، وأنْصحُكُمْ أن نُخْلِصَ الأعْمالَ والأقوالَ للهِ سُبحانَهُ وتعَالَى ، عَسَى أنْ يَحشُرَنَا تَحتَ زُمرةِ المُحسِنينَ ، وما ذَلكَ عَلَى

اللهِ بِعزيزٍ ، وآخرُ دَعوانا أن الحَمدُ للهِ ربِّ العَالمينَ ، وصَلَّى اللهُ عَلى حَبِيبنَا المُصطفَى مُحمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وصَحابَتِه أجْمَعينَ.

وإلى لقاءٍ آخرَ بإذْنِ اللهِ تَعالَى ..

والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ